

ظاهرة العنوسة في الثقافة المحلية للمجتمع القسنطيني؛ قراءة في الأمثال الشعبية

The phenomenon of sprinterhood in the local culture of constantine society ; Reading in popular proverbs

إيمان سايجي^{1*}، يوسف نصر²¹ جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2 (الجزائر)،imene.saihi@univ-constantine2.dz² جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2 (الجزائر)،

ancer_youcef@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2020/06/06

تاريخ القبول: 2022/03/14

تاريخ الاستلام: 2021/09/01

ملخص:

يعد التراث الثقافي في شقه غير المادي، وبما يزخر به من أمثال شعبية مرآة عاكسة لتصورات الأفراد، ومنه فقد استحوذت صورة ومكانة المرأة في المجتمع على جزء كبير منها، انطلاقاً لما تحتله المرأة من أدوار مجتمعية مختلفة. وعليه فقد هُدف تقصي جملة الأمثال المتضمنة للمرأة العانس، وتحليلها لإعطائها بعداً تفسيريًا، وفهم المسار القيمي الذي أخذته دلالاتها في رسم صورة المرأة العانس. اعتماداً على المنهج التحليلي، وانطلاقاً من جمع المادة الأولية المتمثلة في الأمثال الشعبية المتداولة في مدينة قسنطينة، من خلال مقابلات مع الذاكرة الشعبية للمنطقة.

لنتوصل إلى أن جل الأمثال الشعبية المتطرفة لموضوع المرأة العانس، وباختلاف تراكيبها اللغوية، قد تشاركت في وصف نمطي واحد؛ ألا وهو وصمها بالدونية وربط مصيرها بالرجل. الأمر الذي مرده نتيجة ازدواجية التقييم المجتمعي للمرأة، المستند على مبدئي تقديس الزواج وما تعكسه خلفيته من خوف على شرف المرأة في المقام الأول، والفكر الإيديولوجي الذكوري المهيمن على أفراد المجتمع. كلمات مفتاحية: الأمثال الشعبية، المرأة، العنوسة، التصور، المجتمع القسنطيني.

Abstract:

The cultural heritage, with its content of popular proverbs, is a reflective mirror of individual's perceptions, from which the image and the place of women in society has taken on a large part, based on the societal roles they occupy. Therefore; we aim to explore the

range of proverbs regarding spinster, in order to analyse them and to give them an explanatory dimension. We relied on the comparative analytical method, base on the collection of popular proverbs used in the city of Constantine, through interviews.

We concluded that most popular proverbs related to the issue of spinsterhood, have shared a single stereotype; which is to stigmatize the inferiority of sprinter, linking her fate to the man. This is due to the dichotomy of women's societal assessment, based on the principles of the sacrament of marriage as well as the dominant manhood ideology.

Keywords: popular proverbs; women; spinsterhood; perception; Constantine society.

1. مقدمة:

الثقافة الشعبية بكل ما يندرج تحتها تعد جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الكلية، والمتضمنة في طياتها سواء في شقها المادي أو غير المادي خلاصة ما تزخر به المجتمعات، من إرث يتناقل من السلف إلى الخلف جيلاً بعد جيل، عاكساً هوية الأفراد، يُفصح غير المادي منه عن ذاكرة شفوية حية، متجسدة في أشكال التعبير المختلفة، التي من أبرزها الأمثال الشعبية، هذه الأخيرة التي تعد مرآة عاكسة لنمط تفكير الجماعة المرجعية، والمترجمة لتجاربها وخبراتها في الحياة، وكنمط من أنماط التربية التي تُتخذ كمرجعية قياسية، تندرج في سياق الأحاديث المصاحبة للأحداث اليومية، وفق نمط عفوي تلقائي، يتناسب والمقام، منطوي على تأدية المثل للوظيفة المندرج تحتها، سواء كانت توجيهية، تعقيبية وغيرها، بلغة عامية محلية وأخرى تتخللها كلمات فصيحة عاكسة لنمطية التفكير المجتمعي. لتصبح مع دوام تناقلها بمثابة مرجعية شعبية بأبعاد اجتماعية، دينية، ثقافية وحتى اقتصادية، يستشهد به في مواقف ذات منحنى مشابه للأحداث.

وانطلاقاً مما تحتله المرأة في المجتمع من ثقل وجودي، مرده الأدوار المختلفة التي تشغلها على غرار ابنة، أخت، زوجة، أم، الأمر المعبر عنه في "المرأة نصف المجتمع"، وعليه فقد حظيت المرأة بكم هائل من الأمثال الشعبية، المتباينة المضامين بتباين دورها الاجتماعي، أمثال شعبية حملت في طياتها وجهات نظر المجتمع إزاء الأحداث المصاحبة للواقع المعيشي

للمرأة بصفة عامة، وما يندرج تحته من أدوار شخصية وتصنيفات شملت المرأة العانس بصفة خاصة، مستندة في ذلك على المكانة الممنوحة من طرف المجتمع للزواج، القائمة على مبدأ تقديسه الاجتماعي والديني، باعتباره الركيزة الأولى لبناء المجتمع، والرابط المشرع للعلاقة بين الجنسين وفق ما أقره الدين الإسلامي. لتعكس هذه الأمثال الشعبية في طابعها الشفوي اللفظي وجهات نظر وتصورات أفراد المجتمع إزاء ظاهرة العنوسة، وجهات نظر تحكمها أنساق ثقافية، اجتماعية ودينية مرتبطة بالمجتمع، سلكت بدورها مناحي مختلفة تراوحت بين من حملت أسباب عنوسة المرأة، معاشها النفسي والاجتماعي، لتصل لسن توجيهات وقائية للحد منها... الأمر الذي ألزم بموجبه أفراد المجتمع على انتهاج نفس منحى التفكير إزاء الزواج منه إزاء المرأة العانس.

وعليه فنحن نهدف من خلال هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على الأمثال الشعبية في صيغها المخاطبة والموجهة للمرأة العانس، وما يقف عليه الأمر من تقصي وجهات نظر وتصورات المجتمع المحلي حولها. ومنه فنحن نتساءل عن: ما هي الصورة المجتمعية التي منحها المجتمع للمرأة بصفة عامة وللانس بصفة خاصة من خلال الأمثال الشعبية؟

الأسئلة الفرعية:

- ما هي مختلف الصور المجتمعية الممنوحة للمرأة العانس، المنطوية تحت الأمثال الشعبية؟ وهل تنصفها عباراتها أم أنها تسعى إلى إدانتها وتحميلها المسؤولية؟

- ما هو مرتكز الصورة النمطية الممنوحة للمرأة العانس، المفصح عنها في الأمثال الشعبية؟

- من هي الأطراف القائمة على ترسيخ مضامين هذه الأمثال الشعبية؟

ويهدف الإلمام بالموضوع أكثر وإعطائه بعدا سوسيوأنثروبولوجي فقد عمدنا على الارتكاز على المنهج التحليلي، وما يقف عليه هذا الأخير من تقنيات تخدم مسار البحث، ترأسها المقابلة كأداة لاستنباط المعلومات، كما ارتأينا على أن تشمل عينة البحث مختلف شرائح المجتمع المحلي المتمثل في مدينة قسنطينة، بغية الإلمام أكثر بحيثيات الموضوع وجمع

أكبر قدر ممكن من الأمثال الشعبية، والوقوف على مختلف التصورات حول الموضوع، وبالأخص كبار السن باعتبارهم حملة وناقلي الإرث الثقافي الشعبي والذاكرة الشفوية للجماعة المرجعية، وقد أخذنا بعين الاعتبار أن تكون العينة قصدية أي تشمل السكان الأصليين لمدينة قسنطينة، أو ما يعرف بـ"البلديات"، لتجاوز الوقوع في التباسات حول مورد أي مثل سيتطرق له، ومنه حصر الموضوع في إطار المجتمع المحلي المحض، هذه العينة التي شملت 20 حالة تراوحت بين فئات عمرية وجنسية مختلفة، طبقت عليها مقابلات بصفة فردية وأخرى جماعية تبعا ومجرى البحث، ضمن مجال زمني امتد من شهر أفريل 2019 إلى غاية شهر جويلية من نفس السنة.

2. الحقل المفاهيمي للموضوع

قبل الولوج في تقصي ومنه تحليل مضامين الأمثال الشعبية المتضمنة لصورة المرأة وجب الانعراج أولا إلى توضيح المفاهيم الأساسية المتعلقة بالبحث، والمنحصرة فيما يلي:

1.2. المثل الشعبي: هو "تسجيل قولي كلامي في جمل قصيرة لما مر بالإنسان من أحداث، استخلص منها مآثر ومواعظ؛ فأبى الشعب أن يهمل أو ينسى هذه الأحداث؛ فسجلها في هذه الكلمات التي يتناقلها الناس بالرواية الشفوية جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر؛ مما جعل الأمثال تأخذ جانبا خاصا من ألوان فن القول، وهي تؤدي إلى أقوى أنواع التأثير على الأمور وعلى السلوك الإنساني" (أحمد رشوان، 1993، ص41). حيث يشمل أي مثل على شقين؛ مورده ويراد بها الحالة التي قيل فيها لأول مرة، في حين يراد بمضربه الحالات أو المواقف المتجددة التي يمكن يستعمل فيها بعد ذلك (محمد رجب، 2003، ص 26).

وعليه فالمثل الشعبي باختصار هو حوصلة تجارب الآخرين من الأسلاف وعصارة خبرة ما، التي صيغة وفق طابع يتماشى وظروف الصياغة بل وحتى الآنية، وفق قالب شفوي شعبي عمل أفراد المجتمع على توارثه وتناقله جيلا بعد جيل ليترسخ في ثقافتهم كجزء لا يتجزأ من هويتهم، عاكسا وجهات نظرهم وتصوراتهم للأحداث والأشخاص.

2.2. العنوسة: تعد لفظا مشتقا من كلمة عانس، هذه الأخيرة التي "تعد لفظا يطلق على النساء اللواتي لم يسبق لهن الزواج، مع تجاوز أعمارهم سن 30 عاما فما فوق ويعشن لوحدهن من الناحية الجسدية والنفسية والاجتماعية" (مؤيد اسماعيل، 2004، ص249).

3. الوسط النسوي كمنبع للأمثال الشعبية

يرجع طابعه النسوي وانتشار تداوله بين الوسط النسوي دون الرجولي لعدة اعتبارات تتمخض في: الأسلوب المعيشي الذي يطبع المجتمعات العربية المرتكزة على تقسيم الأدوار الاجتماعية ومنه تقسيم الأوساط الاجتماعية أين عمل هذا التقليد السائد من القدم على وضع حدود مكانية للفصل بين المرأة والرجل كطريقة لتجنب الاختلاط من مبدأ الحرمة. هذا التقسيم عمل بطريقة غير مباشرة على تحديد المحتوى اللغوي المتداول بين الفئتين، إذ ونظرا للفترة الزمنية التي تقضيها النسوة مع بعضهن، وما يقف عليه ذلك من مساحة لتبادل أطراف الحديث من مناقشة أنماط المشاكل المختلفة ومنه إبداء الآراء وتقديم النصائح، إضافة لنقل الأحداث والمستجدات الحاصلة. ومنه فقد عمل الوقت المخصص للتجمعات النسوية على فرض نمط التعبير المتداول بينهن بأسلوب يطغى عليه الفضفضة والتفريغ عن المكنونات، المتضمنة لمواضيع تدور ضمن حلقة مغلقة مرتكزة على الكلام عن المرأة ذاتها وأمر نسوية محضة، أغلبها من شبيه القيل والقال.

وفي مقارنة وجيزة للتجمعات نقف على نقطة بالغة الأهمية، ألا وهي أن التجمعات النسوية كثيرة مقارنة مع التجمعات الرجالية، إذ فحتى وان تجمعت هذه الفئة الأخيرة فإن مواضيع أحاديثها تمتاز بالجدية نوعا ما، والتطرق لمناقشة الأمور الحياتية على غرار العمل، السياسة وغيرهما. غير أن هذا لا يعني بالضرورة طبع المواضيع المتداولة بين النساء بأنها غير مهمة ومجرد ثرائيات من هنا وهناك، بل تتعداه لمواضيع تلخص عصارة تجاربهم الواقعية الذاتية، وحتى الغيرية بصيغ سهلة التداول والحفظ، ذات عبارات لغوية بسيطة، تعكس مستواهم البسيط، والمترجمة في شكل أمثال وحكم شعبية، تتناقل عبر الألسنة وتتوارث جيلا بعد جيل، تحت غطاء "قَالُوا نَاسٌ بَكْرِي (زُمانٌ)" أو "كَيْمَا يَقُولُوا"، الحاملة لنصائح

تعاملية، نواهي... وغيرها، لتمتلى جعبة النساء بهذه الأمثال الشعبية، وبالأخص كبيرات السن، وما يعكسه ذلك من دلائل عن الحكمة، الرزانة وخبرة الحياة. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى التساؤل عن من هم ناس بكري؟ أو بسؤال أدق من سن هذه الأمثال؟ ومن هي صاحبة التجربة التي نصت معاني المثل وفق تجربتها؟ أسئلة لا تملك جوابا شافيا لها سوى نسبها لـ "ناس زُمان"، "ناسُ بكري" أي "القدماء"، و"يُقولوا" أي "يقولون"، كون المنبع الأصلي لقائل المثل غير معلوم في جله. إذ ترجع "صعوبة معرفة قائل المثل وتاريخه ومنبعه، في عدم اهتمام الناس بمعرفة القائل؛ لأن الذي يهمهم منه هو مدى تعبيره عما تزخر به نفوسهم، ومن الصعوبة -أيضا- تعدد منابع الأمثال؛ فهناك الأمثال الريفية، وهناك الأمثال الحضرية، كما أنها تنبع من عدة أوساط حرفية وطبقات اجتماعية" (لخضر حليتي، 2016، ص38).

ومن جانب آخر فمن منطلق أن المرأة المسؤولة الأولى عن التنشئة الاجتماعية للأجيال القادمة، تنقل ما نقل لها بدورها من أسلافها، في صبغة تخلو تقريبا من التحريف الحرفي أو الاعتراض عن المضامين. كونها "الكائن الناطق الأكثر خضوعا للتقاليد والأعراف والعادات. وبصفة عامة للموروث الثقافي" (افرفار علي، 1996، ص 56)، وفق تنشئة ترتكز على الخوف من تخطي الحدود الفكرية التي نصتها الجماعة المرجعية، الأمر المترجم في النصوص الشفوية المتجسدة في صيغة أمثال شعبية.

وعليه فقد لعب التداول الشفوي دور المحك في تجسيد الوقائع المعاشة في صيغة أمثال شعبية، ومنه تخليد هذا الإرث الثقافي جيلا بعد جيل. إذ تفصح المناسبات والمواقف المشابهة لظروف صياغته عن هذا الإرث اللغوي، أو حتى تلك المواقف العاكسة للشحنات السلبية من خلافات وشجارات نسوية، كنمط إسقاطي لها، لتؤخذ بما تنص عليه تلك التجارب والخبرات بارزة في بوتقة واحدة؛ ألا وهي الأمثال الشعبية، كذاكرة حية للإنسان تخلد ما عاشه وخبره، مشكلة أحد عناصر التعبير الشعبي. باعتبار أن انتشار المثل يزداد "مادامت هناك حاجة لاستخدامه، وبذلك يكتب له العيش مع الأجيال التي تحتاج إلى

الاستشهاد به، بحسب ملائمة مغزاه للزمن والظروف الشبيهة بالحال التي قيل فيها القول الذي اتخذ مثلاً، ونركن إلى عالمه حين نودُّ تجنب التفكير الطويل في نتائج تجربتنا" (رابع العوبي، د.ت، ص 44).

4. مبدأ الهيمنة الذكورية كإطار مسير للأمثال الشعبية النسوية

انطلاقاً مما جاء به " بيار بورديو" حول مفهوم الهيمنة الذكورية، هذه الأخيرة التي اعتبرها بمثابة عنف رمزي ممارس على المرأة، عنف غير مرئي ولا محسوس، مستند على تنشئة اجتماعية ممتدة من النظرة البيولوجية ذات التصنيف التشريحي للجنسين (ذكر/أنثى)، ومنه التقسيم الجنسي للعمل. أين عمل المجتمع من خلال نظامه الاجتماعي على المصادقة ومنه ترسيخ هذه الهيمنة في سيرورة العلاقات الاجتماعية، مانحاً إيها طابعاً فطرياً مقبولاً وغير قابل للتغيير. هيمنة كرستها التنشئة الاجتماعية التي تعمل على فرض نظام اجتماعي مقرر بالسلطة الذكورية، ومنه رفع لقيمة الرجل، وما يقابله من التبعية النسوية، ومنه خفض لقيمة المرأة، دون اعتبار للمكانة الاجتماعية أو حتى فارق السن لكل منهما.

إضافة لسلبية دور المرأة الاجتماعي المنوط لها وسط الأسرة، الذي ظاهرياً يتسم بالسلطة الكلية والمحرك الأساسي للأسرة، من منطلق اعتبارها ربّ البيت، غير أنه حقيقة مجرد دور تتحكم فيه الضوابط الاجتماعية الجاعلة من المرأة آلية من آليات ترسيخ مبادئه الذكورية، والمانح الرجل السلطة الأعلى. وعليه فلا يكاد دورها يخرج عن إطار المنشئة دون المتحكمة، والمربية دون المقررة بمصير أولادها وبالأخص الأنثى، كما لا ينفك أن يتعدى في المسائل الحاسمة والحساسة حدود "من لا يملك في اليد حيلة"، ملخصاً في المدح وإبداء الفرح والسرور في المواقف ذات الطبعة الاحتفالية، والبكاء، التمني والترجي بالدعاء لتحسين وتيسير الأحوال في المواقف المستلزمة لذلك كأكثر تقدير. فحتى وإن أقر بقراراتها ودورها الاجتماعي فلا مناص له أن يتعدى حدود المشاورة كما صرح به المثل "شاورها وخالفها" أي "شاورها وخالفها في الرأي"، كتعبير مجتمعي رافض الأخذ برأي المرأة لعدة اعتبارات من

منطلق التفكير المجتمعي ذو الركائز الإيديولوجية الذكورية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر رفض السلطة الذكورية أن تسير من طرف الجنس الأنثوي لاعتبارها ناقصة عقل، ومحدود التفكير، ما يفصح حقيقة عن ما تتضمنه مكانتها الاجتماعية.

وعليه فلا تخلو أن تتضمن الأمثال الشعبية المتناقلة من طرف المرأة، تحت مبدأ التنشئة الاجتماعية المسار الذكوري السابق الذكر، باعتبار "أن خطاب الأمثال الشعبية هو خطاب ذكوري، حتى ولو كان على لسان النساء، فهو يظل ذكوريا بامتياز" (عتنا ياسين، 2020، ص 152)، الأمر الذي تؤيده "فاطمة المرنيسي" التي ترى أن المرأة تمارس عليها سلطة الذكور على الإناث وسلطة الإناث على الإناث، (فاطمة المرنيسي، 2005)، المترجمة في استلاب المرأة كحكم لبنات جنسها، باعتبار أن أساس تداول هذه الأمثال مرتكز على النمط التجمعي النسوي، الحاوي لها، ومنه وعاء مرجعي يستدل به عند مصادفة مواقف ستدعي لذلك ولها صلة بالمثل، معبرا مضمونه بطريقة مباشرة، وغير مباشرة عن صورة المرأة.

إذ المتطلع على الأمثال الشعبية بصفة عامة والمتعلقة بالزواج وشروطه بصفة خاصة، يتوصل إلى أنها تتمخض في إقران الرجل بصفات الكمال، لتقتصر السلبية منها في الجانب المادي فقط، المعبر عنه "مَا يُعِيبُ الرَّاجِلُ غَيْرُ جَيُّو" أي "لا ينقص من قيمة الرجل إلا جانبه المادي"، مرد ذلك الاعتبارات المجتمعية القائمة على النسب والرجولة، على نقيض ما ربطت به المرأة من صورة دونية. باعتبار أن "الخطاب المسيطر، أو المهيمن داخل النسق الشعبي بما يتضمنه من أمثال شعبية، يستند على تدني صورة المرأة، ورسم سلبيتها، عبر مراحل عمرها، ومن خلال أوضاعها وأدوارها الاجتماعية المختلفة" (Deleuze Gilles, 1978, p77).

5. المرأة العانس من منظور الأمثال الشعبية

تحتل الأمثال الشعبية دورا بارزا في الوعي التراثي لدى المجتمعات، متوارثة جيلا بعد جيل كاشفة ملامح الجوانب الفكرية للمجتمع المتداول لها؛ إذ تفصح مضامينها الآراء إزاء الظواهر والممارسات التي تطأ المجتمع، كأسلوب تفسيري للوقائع المعاشة استنادا من

إسقاط التجارب السابقة. ولما للزواج من أهمية فقد عكست الرموز اللغوية لنصوصها الضمنية والصريحة ذلك، متخذة أنماطا عاكسة لوظائفها والمتبينة بين:

1.5. الزواج كضرورة اجتماعية؛ "تَزُوجِي لَا يَقُولُوا بَايْرَة، وولدي لَا يَقُولُوا عَاقِرَة" بمعنى "تزوجي كي لا يقال عنك عانس، وأنجي كي لا يقال عنك امرأة عقيم"، حيث يقف هذا المثل على معيارين أساسيين تحدد على أساسهما قيمة المرأة في المجتمع والمنطويين تحت دورها الفطري البيولوجي ألا وهما الزواج والإنجاب. في حين يبرهن "البنت إِمَا رَاجِلْهَا وَإِمَا قَبْرُهَا"، بمعنى "البنت إما لزوجها أو لقبرها"، "العَاتِقُ فِي دَارِ عَارٍ" أي "بقاء العانس في بنت أهلها عيب" و"لَمَّا بَلَا رَاجِلٌ مَالٌ سَايِبٌ" بمعنى "المرأة بلا زوج كالمال الضائع" نمطية تفكير أفراد المجتمع المرتكزة على تقسيم القيمة الاجتماعية لكلا الجنسين؛ الواضحة للرجل في أعلى المراتب عكس المرأة المحددة مكانتها انطلاقا من الرجل التابعة له ضمن علاقة ارتباطية أحادية الاتجاه.

2.4. أسباب ظاهرة العنوسة المربوطة بالبعد النسوي؛ "أَلِي تَخْتَارُ طِيحٌ فِي الشَّمَاثَا وَالْعَارِ"، بمعنى "التي تختار كثيرا مصيرها الوقوع في الأسوأ والسخرية"، إذ يعكس البعد السببي للظاهرة والمتجلي في الطبع "التَّشَرُّطِي" للمرأة، وما ينطوي عليه من جلب السخرية والاستهزاء إثر زواجها بمن دون المستوى أو عنوستها. كما يوضح المثل "مَا يَغُرُّ لَمَرَا غَيْرَ زَيْنِهَا" بمعنى "ما يغري المرأة إلا جمالها"، سبب كثرة الاختيارات المنطوي في اغترار المرأة بجمالها بحثا عن عروض تناسب تطلعاتها ومستوى جمالها. في حين يبرز المثل "كِي خَطْبُوهَا تُعَزَّرَتْ وَكِي خَلْفُوهَا تَهْدَمَتْ" أي "عندما تقدم لخطبتها تكبرت، وعندما نسوها تحطمت" بعدي العنوسة؛ سببي منسب للفتاة إثر تطلعاتها لزوج مثالي، وتحصيلي من تداعيات تمس جانبها النرجسي وكيانها الأنثوي من نقص تقديرها لذاتها. ويعزز المثل "لِي ضَرَبْتُوَيْدُو مَا يَبْكِي" بمعنى "من ضرب نفسه لا يحق له الاعتراض والشكوى"، حقيقة العواقب التي تعيش في خضمها المرأة نتيجة اختياراتها، الأمر الذي يترتب عليه عيشها في تبعيات الوضع دون إبداء أي شكوى. وما وجب الوقوف عليه اتحاد الموقف الجماعي على إبداء نظرة سلبية اتجاه العنوسة

وبالأخص ذات البعد الاختياري. أما "بُنْتُ الزُّنْفَةَ مَا دِيرُ دَارَ" أي "البنت كثيرة الخروج للشارع لا تأسس بيتاً"؛ فيعكس رفض المجتمع لفكرة خروج المرأة حتى ولدواعي ضرورية، وعليه فخروجها عن هذه القاعدة يطبعها بسمعة سيئة، فحتى وإن صيغ في ظروف زمنية مختلفة عن الوقت الراهن، إلا أن معانيه المتضمنة للنظرة السلبية لخروج المرأة وانعكاسها في تحديد مستقبلها الزواجي، مازالت قائمة في منطق التفكير الاجتماعي لبعض أفراد المجتمع. كما حمل بعضها في طياته العنوسة كحل أمثل لتجنب عواقب الزواج الفاشل على غرار "قُعَادُ السَّلَامَةِ وَلَا زَوَاجُ النَّدَامَةِ" بمعنى "البقاء سالمة أحسن من زواج يندم عليه"، و"أُبْقَايُ فِي الدَّارِ وَلَا زَوَاجُ الْعَارِ" أي "ابق في بيت أهلِكَ أفضل لك من زواج سيء"؛ اللذان يعكسان النظرة الاحتراسية التخوفية لفكرة الزواج، الأمر الذي قد يدفع المرأة بطريقة لا واعية لتبن فكرة العنوسة الاختيارية كحل يجنبها الوقوع في نتائج لا يحمد عقباها.

غير أن "العَاتِقُ إِذَا بَارَتْ عَلَى سَعْدُهَا دَارَتْ" بمعنى "الفتاة إذا عنست، حظها كان أحسن" يعكس بعداً إيجابياً لتداعيات البقاء دون زواج، الأمر الذي مرده توفير فرص أفضل للاختيار ومنه الاقتران، والمعبّر عنه بـ "الصَّابِرُ يُنَالُ" بمعنى "كل صابر ينال جزاء صبره".

3.4. العنوسة كضرورة حتمية؛ من منطلق أن أسباب العنوسة تقف على شقين، اختياري وآخر حتمي، فقد أقرّت نصوص الأمثال الشعبية بهذه الحقيقة مبرزة بعض أسباب الظاهرة الحتمية من جهة، ومنصفة المرأة العانس من جهة أخرى. إذ تطرقت بعض جزئياتها إلى ذلك. الأمر الذي أفصحت عنه مضامين بعضها؛ "كَحْلَتِي بَاطِلٌ وَسَوَكْتِي بَاطِلٌ مَا جِيتِي لَا عَلَى الْعَيْنِ وَلَا عَلَى الْخَاطَرِ"، "سَعْدُ الْكَحْلَةِ فِي السَّمَاءِ، وَسَعْدُ الْبَيْضَةِ فِي لَحْمًا" أي "حظ سمراء البشرة جيد، بينما حظ بيضاء البشرة سيء"، و"بَنَاتُ الْعَزِيقِ قَعْدُو لِلدَّرْ" بمعنى "بنات العائلات الراقية مصيرهم المعانات" عاكسة لخروج مسألة الزواج من يد المرأة رغم الجهود المبذولة من طرفها، الأمر الذي يرجع حسب منظور هذه الأمثال إلى الحظ السيئ الذي يلاحق المرأة رغم ما تحظى به من امتيازات جمالية واجتماعية وغيرها.

4.4. توجيهات علاجية؛ حَدَتْ مضامين هذه الأمثال منحا علاجيا لتجنب الظاهرة ومنه تفادي الوقوع في تداعياتها، ضمن توجيهات للأب لما له من مسؤولية وسلطة ممنوحتين استنادا على الإيديولوجية الذكورية التي تصبغ المجتمع. على غرار "زَوْجُ بَنَّتِكَ وَقْتُ زَوَاجِهَا" أي "زوج ابنتك وقت زواجها"، "أَخْطَبُ لِبَنَّتِكَ قَبْلَ مَا تَخْطُبُ لَوْلَدِكَ"، "ضَرَسْتُكَ لَكَانُ وَجَعَتَكَ نَحِمًا وَبَنَّتَكَ لَكَبْرَتْ أَعْظَمًا" بمعنى "عندما يؤلمك ضرسك اقلعه، وعندما تكبر ابنتك زوجها"، و"بَكَرْ لِحَاجَتِكَ أَقْضِيهَا، وَاتَّصَنَتْ لِلْفَالِ، بَنَّتَكَ قَبْلَ الصُّومِ أَعْظَمًا لَا يَكْتَرُ الْقِيلُ وَالْقَالَ" أي "اقض حاجتك باكرا، واستمع للفأل، زوج ابنتك قبل بلوغها، لتجنب الأقاويل عليك وعليها"؛ إذ تحمل معاني إلزامية تسريع تزويج الفتاة لما ينطوي عليه التفكير الجماعي من رهن زواج الفتاة بسن معينة. كما لا يفوتنا "أن موقف الآباء إزاء زواج بناتهم يخضع لمنطق محدد بغياب آفاق أخرى بالنسبة لهن غير الزواج وبالخوف من رؤيتهن يسقطن في الدعارة" (Malik el belghiti, 1984, p22). ما يترجم مبدأ قدسية شرف الفتاة، العاكس للعلاقة الثلاثية الرابطة بين الفتاة، شرفها والأسرة. وخوفا من وقوع المحذور يلجأ الآباء إلى التملص من هذه المسؤولية والرمي بثقلها على عاتق الزوج. الأمر الذي تؤكد "نادية لعشيري"، إذ ترى أن أغلب أفراد المجتمع لكي لا تقع في التعميم إذا قلنا كلهم، مقتنعون أن أفضل شيء للفتاة هو تزويجها، وكلما كان الأمر باكرا كلما كان الأمر أفضل، لتفصح مختلف الدراسات الميدانية المتطرفة للموضوع، أن هذا ناشئ لعدم الثقة بالبنات المنصبة في الخوف من الشرف، إضافة للوضع المادي للأسرة.

ومن جانب آخر فقد حدث المضامين التوجيهية للأمثال الشعبية مسرى توجيهي للعانس بحد ذاتها، حتى وإن كانت في بعض المحطات لم تتطرق للأمر بصفة مباشرة. إذ يعكس "في الحركة بركة"، "تَحَرَّكُوا تُرَزَّقُوا" و"بَنَادِمُ يُبْدَا وَرَبِّي يَكْمَلُ" بمعنى "على الإنسان أن يبدأ ما يعزم عليه، وينتظر التوفيق من الله تعالى"، ضرورة سعي الإنسان لتحقيق مطالبه والحصول على رزقه، الأمر الذي ينطبق على المرأة العانس، التي وبموجب هذا المثل يتوجب عليها أن تسعى لتقديم الأسباب لحصول الزواج، وفق طرق مشروعة تتناسب وتنشئها، على

غرار التواجد على الساحة الاجتماعية للتعرف عليها، وغيرها من الطرق التي تأخذ عدة منحنيات مختلفة تبعا وشخصية المرأة. أما "تُمْسُكُنْ حَتَّى تُمْكُنْ" بمعنى "تظاهر بأنك شخص مسكين حتى تحقق ما تطمح إليه"، فيندرج ضمن النصائح التي تحث على إظهار واستعمال أسلوب الرفق واللين في المعاملات اليومية، وبالأخص تلك الهادفة لاستعطاف الآخرين بغية الحصول على المبتغى. وبإسقاط مضمون المثل على المرأة العانس، فنجد أنه بمثابة دعوة لها لانتهاج هذه الطريقة للحصول على ما تصبو إليه ألا وهو الزواج، من خلال استمالة أنظار الآخرين لحالها، وإظهار الجانب الجيد في شخصيتها.

"لِي ضَرْبُتَوِيدُو مَا يُبْكِي" يحمل هذا المثل توجيه بصيغة تأنيبية ذو منحى عام إذ لا يقتصر بالمرأة العانس بصفة خاصة، لكن إسقاطه عليها يفصح عن تنبيه تأنيبي لما قد تنجر عنه الأمور، وبالأخص في حالة ما قد تمادت في شروط زواجها، أو اختارت العنوسة الأمر الذي يتحتم عليها تحمل العواقب. أما "الْفَايْدَةُ مَا هَيْشْ فِي الزَيْنِ، الْفَايْدَةُ فِي الْخُلُقِ وَالْدِينِ" بمعنى "لست الفائدة في الجمال، بل في الأخلاق والدين"، فيعتبر هذا المثل تعبيراً صريحاً للمعايير التي يتوجب أن تختار على أساسها المرأة العانس شريك حياتها، وبالأخص تلك الفئة ذات الطبع الاشتراطي المنساق وراء الجمال، إذ رغم مرور عقود عن صياغة هذا المثل إلا مضامينه تتلاءم والوقت الراهن، لاسيما مع استدخال نمط تفكير المسلسلات التركية والثقافة الغربية. كما يحمل المثل "أَفْنَعُ بِالْقَلِيلِ يَعْطِيكَ اللَّهُ لَكُنْزٌ" أي "اقتنع بالقليل يمنحك الله الأكثر" نفس المسار، كدعوة لوضع حد للشروط الكثيرة المناهضة بها المرأة.

وفي مقام آخر فلم تقتصر النصائح على الجنس الأنثوي فقط، بل انعرجت لتشمل الرجل، باعتباره الطرف الثاني المعني بأمر الزواج إن لم نقل الأساسي، والمتحكم بطريقة شبه مباشرة في مصير المرأة، كون زواجها أو عدمه مرهون بيده؛ إذ اختياره أو رفضه الاقتران، يترتب عنه زواج أو عنوسة امرأة ما، نصائح توجيهية تنصب في أسس اختيار المرأة المناسبة للزواج. فعلى سبيل المثال "مَا يَعْجَبُكَ نَوَازُ الدَفْلَةِ فِي الْوَيْدَانِ مَدَايِرُ ظَلَايِلِ، وَمَا يَعْجَبُكَ زَيْنُ الطِفْلَةِ حَتَّى تُشَوِّفَ لُفْعَايِلِ"، بمعنى "لا تنخدع بأزهار شجرة الدفلى المزهرة في الوديان، ولا

تنخّذ بجَمال الفتاة حتى ترى أفعالها وأخلاقها"، حيث يعكس هذا المثل معايير اختيار الزوجة المستقبلية، القائم على أساس صلاح طباعها وخصالها الحميدة كونها ركيزة العلاقة الزوجية، لا على جانبها الظاهري الجمالي، لأن المظاهر قد تخدع أحياناً، وما يشابهه في نفس المنحى "الزَيْنُ زَيْنٌ لُفْعَايِلُ" أي "الجمال جمال الفعل وليس المظهر". في حين يحمل "أدي بنت عمك وَلَوْ كَانَ بَايْرَةً" أو "لي مَا دَا بنت عَمُو مَا زوج" بمعنى "تزوج ابنة عمك حتى وإن كانت عانس"، دعوة مباشرة لقصد اختيار المرأة العانس للزواج، بشرط أن تكون من الأصول المقربة، لما يقف عليه الأمر من درايتها بتقاليد الأسرة وعاداتها، إضافة لكونها حافظة شرفهم وأسرارهم من جهة، ودراية الطرف الطالب بكل صغيرة وكبيرة فيما يخص طريقة تنشئتها وخصالها، باعتبار أنها منهم وترعرعت وسطهم، هذا من جهة أخرى. الأمر الذي يعكس على غرار باقي الأمثال عن قيمة اجتماعية ممنوحة للمرأة العانس، المشترطة بصفة القربة.

فحتى وإن لم تحمل الخطابات الشفوية لهذه الأمثال تعابير ضمنية، صريحة حول المرأة العانس، إلا أن دلالاتها تشملها، نظراً لما يقف عليه مصير زواج المرأة من ربطه بمصير زواج الرجل.

5.4. تمثيلات العانس السلبية؛ يعكس "هَمْ الْبَنَاتُ حَتَّى الْمَمَاتِ" أي "مشاكل وهم البنات تبقى حتى مماتهن"، "لي عَنْدُو بَنِيهِ عَنْدُو بَلِيَّهِ وَلِي عَنْدُو زَوْجٍ يَخْرُجُوهُ مَن دِينُ الْوَالِدِينَ" بمعنى "من لديه ابنة لديه هم، ومن لديه ابنتين فهو في مأزق"، الصورة السلبية للفتاة باعتبارها نذير شؤم وعبء على أسرتها، يتزامن هذا وفترات حياتها وبالأخص في حالة عنوستها ما يخلق عبء وخوف أكبر للوالدين أمام مصيرها المجهول. في حين يقف "رَايَحَ لِلْبَايْرَةِ تَكْتَبْلُو" بمعنى "قصد العانس لتحسن له حظه"، على الاستغلال اللفظي للكلمة في مواقف ساخرة ما يؤكد التمثل السلبي لقيمتها وفائدتها. أما "وَلَاذَ عَمِي يَزُوجُوا وَأَنَا نَفْرَحُ لِلْقَمِّ" أي "أولاد عمي يتزوجون، وأنا أفرح للقيمات الأكل" فيبين الصورة اللامبالية، التحصرية الواسمة للانس في طابع استخفافه للوضع المعاش إزاء أفراح معارفها.

6.5. مرآة عاكسة لحالة العانس النفسية؛ "كَحَلَّتِي بَاطِلٌ وَسَوَكَّتِي بَاطِلٌ مَا جِيتِي عَلَى الْبَالِ وَلَا عَلَى الْخَاطِرِ" بمعنى "تزينتي دون فائدة"، إذ يتضمن هذا المثل العلاقة الترابطية لبعدي الظاهرة؛ الأول المتضمن لممارسات تعدي الوضع في طابع تجميلي للذات، والثاني العاكس للتداعيات النفسية لما هو معاش عقب فشلها ليتأزم الأمر بكبر سنّها، ما يتضمنه البعد التخوفي لـ "تُخَافُ لِمَا مِنَ الشَّيْبِ كَيْمَا تُخَافُ النَّعْجَةَ مِنَ الذِّيبِ" بمعنى "تخاف المرأة من شيب شعرها والكبر، مثلما تخاف النعجة من الذئب"، من قوة زمنية ضاغطة مضافة على عاتق المرأة إثر ضعف احتمالية تأسيسها لأسرة. ما يعززه "لِي فَاتَوْقُتُومَا يَطْمَعُ فِي وَقْتِ النَّاسِ" أي "من كبر وتجاوز وقته لا يطمع في وقت الأصغر منه"، من معنى صريح لقطع الأمل في تحقيق ما لم تصب إليه في فترات سابقة وعلى رأسها "الزواج".

5. التحليل الأنثروبولوجي لرمزية الأمثال الشعبية المتضمنة لصورة العانس

تفصح قراءات ما وراء هذه الخطابات الشفوية، عن مكبوتات الذات الذائبة في المجتمع، منعكسة في الصورة النمطية، الممنوحة من طرف أفراد المجتمع للمرأة، والملازمة لكيانها كصبغة لا يمكن إزالتها، باعتبارها قد صيغت في خضم نفس التركيبة البشرية. فباستطلاع مضامين جملة الأمثال الشعبية التي تناولت موضوع المرأة بصفة عامة، نقف على نقطة بالغة الأهمية؛ ألا وهي انسياقها في منحى واحد، والمتمثل في صبغ الكيان الأنثوي بصبغة دونية. هذه النظرة الدونية التي تأخذ منحاً متضاعفاً تبعاً وتدني الوضعية والمكانة الذي يمنحها المجتمع للمرأة، وعليه ونظراً لما تنطوي عليه مكانة المرأة العانس المتموضعة في أدنى السلم الاجتماعي من منطلق ازدواجية التقييم الاجتماعي، الراض للوضعية من مستند تقديس الزواج من جهة، والرافع لمكانة الجنس الذكري بخلاف الجنس الأنثوي، من مستند الإيديولوجية الذكورية المهيمنة على نمط التفكير من جهة أخرى. فلا يختلف اثنان أن "المجتمعات والشعوب مع اختلافها فيما بينها في أغلب الميادين التي تخص مصالحها وعلاقاتها، إلا أنها تتفق على ثقافة ازدراء المرأة في الأمثال الشعبية؛ بل إنها تتناص فيما بينها بمعانها وأغراضها" (عماد الدين العباسي، 2018، ص305). كما أن الملاحظ في هذه الأمثال

اشتمالها على معنى ضمني واحد ألا وهو تقديس الزواج، المرتكز على قيمته الدينية المستمدة من تعاليم الدين الإسلامي باعتباره "نصف الدين"، ومنه ركيزة أساسية لقيام المجتمع. وتحليلها لغويا نقف على جملة من الإيحاءات الرمزية ذات بعد تعنيفي دوني ضد كيان المرأة، إذ "يعبر المثل الشعبي عن توجه وفكر ترسخ بفعل تداعيات الماضي وتعزز وجوده بتقبل المجتمع له وزاد تأثيره بمحافظه المجتمع عليه، فتحول من مجرد أقوال إلى اعتقادات وترجمت إلى سلوكيات وتعاملات يومية يتعامل بها إزاء المرأة" (الطاهر ابراهيمي، 2013، ص 167)، فارضة عليها ضغطا اجتماعيا. والمفارقة أن المرأة الطرف القائم على تعزيز هذه التمثيلات لتداولها في وسطها النسوي من منطلق المعايير الإيديولوجية الذكورية القائمة في المجتمع. إلا أن هذا لا ينفي وجود ما تتضمنه صورا ايجابية رغم أنها "تظل محدودة العدد مقارنة مع غالبية الأمثال التي ترسم صورا سلبية للمرأة، وهذه الحقيقة ليست خاصة بالثقافة العربية، بل تكاد تكون كونية وتكاد تكون تاريخية" (نادية العشري، 1996، ص 14). ومن جانب آخر فإن "الأمثال التي لا تفصح صراحة عن كونها موجهة للرجل فإن المرأة تكون مشمولة بها أيضا، وهنا يكون الظلم الذي يقع على المرأة مضاعفا" (عماد الدين العباسي، 2018، ص 304).

وفي الأخير لا يمكن تجاهل أن الأمثال "تتحرك في زمن مفتوح، زمن غير محدد، ولذلك لا نستطيع الجزم بأن هذه الأمثال بذاتها وبكل ما تعنيه تمثل الرأي السائد اليوم" (فاطمة يوسف، 2000، ص 32)، وبالأخص مع التغيرات التي يشهدها المجتمع وما لها من دور في تغيير طريقة تفكير أفرادها. باعتبار أن الإقرار بثبات مضامين الأمثال هو إقرار مباشر بثبات ظروف سياقها الأولى، إقرار مُهمش للدور الذي لعبته وتلعبه التغيرات الحاصلة في المجتمع، تغييرات حتمية لا مفر منها، راسمة لأنماط مختلفة من التفكير المواكب لمجريات التطورات، غير أن هذا لا ينفي حقيقة الثبات الشبه كلي لبعض المعتقدات، ولا سيما تلك المتعلقة بالمرأة والزواج.

ومن جانب آخر فإن أخذنا بفرض احتمالية تغييرها فهي لن تتغير بوقت قصير، كونها مرتبطة بنمط التفكير الطاغية عليه الإيديولوجية الذكورية المتجلية في الهيمنة الذكورية التي يصعب تغييرها، إضافة إلى أن هذه الأمثال الشعبية قديمة، وقد مر عليها زمن طويل دون أن تمس معاني مضامينها، متخطية قيود الزمان والمكان، بل يحرص على استمرارية تناقلها ونقلها بحذافيرها جيلا بعد جيل، كتعبير لقبولها ومنه الإقرار بصحة ما تتضمنه من منطلق تشابه الطبيعة البشرية والبيئة الثقافية من جهة، والرفض التخلي عنها باعتبارها مرآة عاكسة لهوية المجتمع من جهة أخرى.

6. خاتمة:

لا يختلف اثنان في كون الواقع التي تتضمنه معاني الأمثال، هي حوصلة تجارب حقيقية عاشها وخبرها ذاتيا أو غريبا صاحب مورد المثل، ما يعطيها صبغة الحقيقة النسبية، والمتجاوزة للحدود المكانية وحتى الزمنية لموردها، معبرة عن حضورها في الكيان الجمعي للذاكرة الشعبية، ببعد أسى من كونها خطابا شفويا تتناقله الألسنة، لتعمل كمحك ذي سلطة تتحكم في السلوكات المبدية. ورغم هذا فلا يخفى أنها صيغة ضمن بيئة ثقافية مختلفة عما نحن عليه الآن، إذ سابقا لم تكن المرأة قد حضت بقدر من التحرر مقارنة بما هي عليه الآن، إضافة إلى أن ليس بالضرورة الحتمية أن تطبع جل التجارب بنفس المقياس وأن تأخذ منحى واحدا بين جميع الأفراد. باعتبار أن "المثل يشير إلى خبرة فردية أو جماعية دون الاهتمام بصدقها أو بتحقيقها علميا من قبل المستخدم، وذلك لأن الوظيفة النفسية للمثل هي إعطاء الفرد ما يشبه الراحة النفسية والطمأنينة بأنه قادر على تفسير سلوك معقد، بوضع كلمات مبسطة" (أحمد العبيدي، 2010، ص31).

وختاما فإن التطرق للأمثال الشعبية يفتح آفاقا أوسع أمام دراسات أخرى لإحياء التراث الشعبي في شقه غير المادي، دراسات قد تأخذ منحى مقارنا لمضامين الأمثال المتطرفة للمرأة بوجه عام، والعانس على وجه الخصوص، وسط مجتمع آخر، ومنه الوقوف على أوجه التشابه وكذا الاختلاف. أو قد تأخذ منحى إحصائيا للوقوف على مدى تردد هذه الأمثال

ومنه صور العانس المستندة عليها بين أفراد المجتمع الواحد بحكم التغيرات الحاصلة في المجتمع، الأمر الذي له تأثير في الحد من مدى انتشارها. ومنه إثراء الجانب السيوسيو ثقافي وحتى الأنثروبولوجي.

7. قائمة المراجع:

1. افرفار، علي، (1996). صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، بيروت، دار الطليعة.
2. جرجيس، مؤيد اسماعيل، (2004)، البرانويا وعلاقتها بالوحدة النفسية لدى النساء العانسات، دراسة ميدانية، مجلة زانكو، العدد 27.
3. حسن، فرحان محمد، (2010)، الأمثال التركمانية في لهجة تلعفر "الزواج أنموذجا"، مركز الدراسات الإقليمية، المجلد 6، العدد 18، ص ص 279-289.
4. حليتي، لخضر، (2016)، الأمثال الشعبية الجزائرية بين التأثير والتأثير -دراسة تناسية دلالية-، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الأدب العربي، قسم اللغة العربية، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر.
5. رشوان، أحمد، (1993)، الفولكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.
6. الطاهر، ابراهيمي، لبيبي، خديجة، (2013)، المرأة كموضوع للعنف الرمزي في الأمثال الشعبية "دراسة سوسيولوجية في خطاب الجماعة الثقافية في وادي سوف"، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، المجلد 2، العدد 1، ص ص 147-172.
7. العباسي، عماد الدين، (2018)، تصوير المرأة في الأمثال البغدادية، مجلة التراث العلمي العربي، العدد 36، 293-367.
8. العبيدي، علي أحمد، (2010)، صورة المرأة في الأمثال الشعبية "دراسة موازية بين الموصل وحلب"، دراسات موصلية، العدد 30، ص ص 23-42.
9. عتنا، ياسين، (2020)، مراجعة كتاب المرأة في العلوم الاجتماعية: من متغير الجنس إلى سؤال النوع (فوزي بوخريص)، مجلة تجسير، المجلد الأول، العدد 2، ص ص 150-155.

10. العشري، نادية، (1996)، صورة المرأة بين الأمثال الأندلسية والاسبانية "دراسة بمجلة مكناسة"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 10، ص ص 7-14.
11. العوي، رابح، (د.ت)، أنواع النثر الشعبي، منشورات جامعة باجي المختار، عنابة.
12. فضيل الشريف، أحمد، (2007)، رياض الأدب الشعبي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
13. المرنيسي، فاطمة، (2005)، ما وراء الحجاب كهندسة اجتماعية، ترجمة أزرويل فاطمة الزهراء، دار البيضاء، المركز الثقافي العربي نشر الفنك.
14. النجار، محمد رجب، (2003)، من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي، القاهرة، الشركة الدولية للطباعة.
15. يوسف العلي، فاطمة، (2000)، المرأة في المأثورات الشعبية الكويتية، مجلة البيان، عدد 355 فبراير، ص ص 24-32.
16. Deleuze, Gilles, (1978), minorité et Philosophie, Critique, Vol 34, No369.
17. El Belghiti, Malik, (1984), Le rôle de la femme dans le développement socio-économique « in indicateurs du rôle nouveau des femmes dans le développement », éd UNESCO.